

مشاهد أوروبا

٥

قصر ميلان ومشاهبه

ميلان من أكبر مدائن إيطاليا فان فيها من السكان زهاء ستمئة الف نفس وهي من أكثرها معامل وواسعها تجارة وافرها ثروة . بناها الاتراكليون في القرن السادس قبل المسيح ولم يزل اثر من لغتهم في لغة اهلها . وزادت عظمتها رويداً رويداً حتى فاقت على رومية منذ القرن الرابع بعد المسيح وكانت مطمح ابصار ملوك ألمانيا وملوك فرنسا لوفرة ثروتها وغصب البلاد المحيطة بها فتعاقبوا عليها وثقلت شوئها الى ان انضمت الى مملكة إيطاليا الحديثة سنة ١٨٥٩ ومن ثم اخذت ترتقي ارتقاء سريعاً حتى فاقت كل مدائن إيطاليا في الفنون ولعلها فاقت مدائن الارض في فن النقش وعمل التماثيل ولذلك تجد في قصورها ومدافنها من الصور والتماثيل والنقوش ما لا تجد في غيرها . ولما كانت الفرصة قصيرة لا تسمح لي بمشاهدة كل ما فيها من التحف والتفاسر اتصرت على مشاهدة القصر الملكي وقصر العلوم والفنون والمدائن الجديدة والروض العمومي وهاك وصفاً وجيزاً لما رأيت فيها

اما القصر الملكي فامام الكنيسة الكبرى وبينها ساحة رحية مرصوفة بالبلاط والخصى ويدخل اليه باذن خاص من ناظره . ولا يدل ظاهره على ما في مقاصده من الاثاث النفيس والتحف الفاخرة ومظاهر المجد والعظمة ولكنهم آخذون في اصلاح ظاهره وتجميله وحقل الاعمدة الكبيرة التي في واجهته (ولعلها اضيفت اليها حديثاً لتماثل رواق فكتور عانوئيل المقابل لها) . وقد طننا في غرف هذا القصر واحدة واحدة ورأينا غرف الملك وغرف الملكة وسريريها والغرفة التي نام فيها نابليون وغيره من الملوك . واقل ما يقال في هذه الغرف انها غرف ملوك . وفيها من الصور والتحف ما يعجز عن وصفه القلم وأكثرها حديث او منقول عن صور قديمة ولكنهم مصنوع باقلام اشهر مصوري هذا العصر وهو اقرب الى الحقيقة من صور المتقدمين كما سيحي . وفيه من الجمال ما تبسط له النفس ويتفنن به العقل حتى لقد كنا نقارن بعض الصور كرهاً عنا . ومن اغرب ما هنالك صور منسوجة نسيجاً على ملاءات كبيرة من الحرير كل ملاءة منها تغطي جداراً وهذه الصور تراها عن بعد فتظنها مرسومة بالقلم والادهان الزيتية فاذا

ملا بسهم. ولما زاد الرومان في الترف والبدخ زادوا عدد حماماتهم كثيراً حتى كانوا يقيمون طول نهارهم فيها في ايام الامبراطرة. وحينئذ شيدت المباني الفاخرة التي سميت "ثرم". وكان كل امبراطور يريد اظهار عظمته بتشيدها فيقضي للشعب فيها

واما حماماتهم الخصوصية فكانت تبني في اطراف المنزل. والحمام منها عبارة عن ساحة تحيط بها الاروقة من ثلاث جهات ويوضع في الجهة الرابعة حوض ماء بارد يسع غير واحد من المستحمين وبلي ذلك حمام آخر بارد موجد الباب في وسطه ورجل يسع نفرًا من الناس. وبالتقرب منه غرفة الملابس حيث ينزع العيد الثياب عن مواليمهم ويطوونها ويضعونها في اماكن خاصة بها. ويتلوها الحمام الحار وهو يتخمن عدة اماكن للاستحمام اعظمها القاعة الهلالية وكانوا ينزلون اليها على درج من الرخام ويضعون فيها صفين من مقاعد الرخام ويسمونها المدرسة لان المستحمين كانوا يتناظرون هناك في المسائل العلمية والفلسفية ويبحثون المباحث الادبية. وبلي المدرسة محل مستدير الشكل في الغالب فيه ثلاثة صفوف من مقاعد المرمر حول حوض من الماء الغالي المنتشر بجذارة في جوانب القاعة كالضباب. فكان المستحم يجلس على المقعد الاول ثم على الثاني والثالث ليتعود احتمال الحرارة تدريجاً. وتحت ارض الحمام كلو مواقد وافران توقد النار فيها فتسخن ما فوقها من البلاط والمقاعد والماشي ونحوها وهناك محل آخر يجري منه الهواء الحار ويقوى المجرى ويخفف برفع غطاء بواسطة سلسلة من الحديد فتخرج المستحم من هذا المحل دخل الحمام الحار حتى يتقل الى الهواء الخارجي تدريجاً. ثم ياتي بالخدم فيدلكون جلدهم بمذلكة من العاج وينشفونه بناشف من القطن والكتان ويدثرونه بدثار من الصوف طويل الخمل ويقلمون اظفارهم ويدهن الصيد جسدهم بالزيت والطيب

وقد تبين للباحثين في آثار الافدميين انهم كانوا يفرشون حماماتهم بالرخام والمرمر ويزينونها بالنقوش والصور مثل صورة ولادة الزهرة والغاب تريون والناياد من آلهة البحار على ما في خرافاتهم وصور التانين والحيتان وكانت قاعاتها تزين بالنسيفساء البديعة الاشكال والالوان. وقد وجدوا في خرائب الحمامات كثيراً من التماثيل ومصابيح البرونز وآنية الفضة والاجر المذهب البديع الصنعة



الصور القديمة والمصور يجرّد الصور الخياليّة ما يراه عينه من صور الموجودات فكما
دنت مواضع صور من البلاد التي يسكنها اقتربت من الحقيقة ولا يعاب عليه حينئذ
ان يلبس الصور الخياليّة بهاء يستنبطه من صورة الجمال الكليّة التي في ذهنه
ولما فرغت من مشاهدة الصور القديمة دخلت غرف الصور الحديثة فلم أرها أقل
بهاء من الصور القديمة بل بالضد من ذلك رأيتها جامعة بين البهاء والقرب من الطبيعة
فترى هنا فارساً تبدو البسالة والمباية على كل جارحة من جوارحه . وهناك عالمًا يشفّ
وجهه عن ذهن متوقد وفكرة صائبة . وهناك فتاة فتاة يبيض السحر من عينها ومبسمها
ولقد اعتاد كثيرون من الكتاب والباحثين ان يحتسروا مصنوعات هذه الصور في
التصوير والنقش ويفضلوا عليها مصنوعات الاقدمين . قال الميوس غتاف له بون في فصل
له نشره حديثاً في الرفوسيتنيك " ان العمران قد بلغ الآن درجة من الارتقاء لم
يلفها من قبل ولكن الفنون لم تكن في عصر من العصور مبتدلة ممتهنة كما هي الآن فقد
نشأت من تعبد الاقدمين وتقلّبت عليها الاحوال حتى صارت من الاضافات
والتقليدات وكل أمة من الامم الحاضرة تكتفي الآن بتقليد مصنوعات الاقدمين " الأ
انني لا ارى هذا القول مطبقاً على اهالي اوربا الآن لان شعراءهم ومصوريهم ونقاشيهم
قد خلعوا نير التقليد وساروا في خطة الطبع واعتمدوا على التحقيق في منظوماتهم ومصنوعاتهم
وسيتقدي بهم المقنون والممثلون . والطبيعة هي المثال الذي يجب ان يتبع ولا جمال غير
ما نراه فيها او يجرد منها وحسبها انها صنع الخالق الحكيم الذي وجد كل ما صنعه حسناً
ولا يستطيع ان اصف كل ما شاهدته في هذا القصر من الصور والتماثيل والعاديات
لاني رأيتها كهابر سبيل لكثرتها وضيق الوقت وقد خرجت من هذا القصر حينما كان
وقت اقفال (الساعة ٤ بعد الظهر) وركبت مركبة الترامواي واسرعت الى المدافن
الحديثة وهناك تقام عظام سيلان ومظهر مهارة صناعهم . وقد جاد هؤلاء الناس على
مدافنهم كما جادوا على مساكنهم وجاء صناعهم بابدع ما بلفوه من المهارة ورسم المدافن
وحده آية في الجمال . أما عن نضارة الاشجار وخضرة الياحين ونخامة الاضرحه وجمال
التماثيل فحدث ولا حرج . وما زاد دهشتي ان بعض التماثيل لايس حلاً من الخفل
(القطيفة) والاطلس ولهذا الحلل اهداب وبنود ويظير عليها كلها لمعان الحرير وتوجّه
كأنه حقيقي وما هو الا حجر خشن غير صقيل فكيف احكم الصناعات صنعت حتى صار كالمخفل
والاطلس وظهّرت له هذه الاهداب والبنود . وبعض الوجود مغطى برفق دقيق النسيج

تظهر ملامح الوجه من تحتها حتى لا تحسب إلا احتياجاً تكاد تزيد يديك . هذا من قبيل دفقة الصنعة اما المعاني البادية على تلك الوجوه وصور الحزن والكآبة في تماثيل الاقارب الواقفين امام انحرحة موتاهم فما تصدع له القلوب وننتت الاكباد . واقد أحسن الميلايين في تشييد هذه المدافن وزخرفتها وتثيقها بالاشجار والازهار والرياحين ونحو ذلك ما تطيب به النفس ويسر به خاطر فيشعر الانسان ان قيده في فردوس النعيم حتى في هذه الدنيا . وحبذا لو اقتصروا على ذلك وتركوا صور الحزن والنغم ولو كانت آية في الايقان . وأحرى بين كان معلماً للناس ومبذباً للنفوس كالمصورين والنقاشين ان يحلج مرارة الموت وينير ظلمة القبر لا ان يزيد مرارة وظلاماً

وفي هذه المدافن مقام لحرق الاموات تحرق فيه جثة الانسان في اقل من ساعة فتسجل رماداً يحفظ في حتى الى يوم الحشر والنشور . ويقال انه يحرق فيه عشرون جثة كل شهر ولا ادري اي البليتين اخون اطعام جسد الخيب للودود ام اطعامه النار ولكن

لا تصلح الارواح الا اذا سرى الى الاجساد هذا الفساد وكيف كان فسادها فان عناصرها تصل وترجع الى هذا المجموع العظيم الذي أخذت منه والله در القائل

وما الدنيا لتادار ولكن طريق فيه تنتصب الخيام

بنيانها وتهدمتنا وكل من الامرين ليس له دوام

واسرعت بعد مشاهدة المدافن الى مشاهدة الروض العمومي وكانت الشمس قد دنت من المغرب فرأيت اشجاره البواسق حراجاً وبركه الدوافق بجاراً ولم اتم التطواف فيه حتى اكفرت وجه السماء وعقدت السحب فيه ماتم ثم بكت بالدموع السواجم فودعتة أسفاً لفرقة راجياً ان اعرض باصطباحه عن اغتيابه

٦

من ميلان الى سان سرك

ودعنا ميلان رأد الضحى وركبنا ظمن اهل المغرب الذي يخترق الجبال كما يخترق المنافز ناز بين فيجاد ووهاد بلثم خدود البحيرات فتورد . ويضم قدود الانهار فتأود ويدخل جرف الارض فيستحيل النهار ليلاً . ولا يلبث ان يخرج منه مجر من البحار

ذيلًا . ويدور في لوالب بعضها فوق بعض . ليرقى فوق ما نهد من الارض . كأنه انقى
تصمغ ونثنى وظل يخرج من سرّب ويدخل في آخر الى ان يلفنا سرب سنت غوتار
آية المهندسين ومعجزة المتقدمين والمتأخرين فودعنا النهار وسامنا الامر الى من ييده
الآجال والاعمار . وكان خدمة القطار قد اوقدوا مصابيحهم من اول الطريق فسار بنا كما
يسير في الليل الحالك أكثر من ثلث ساعة

وطول هذا السرب من طرف الى طرف تسعة اميال وربع ميل فهو اطول من
سرب مون سنس ميل وثلثي الميل وقد شرع العمال في ثقبه في شهر يونيو (حزيران)
سنة ١٨٧٢ واتممه سلخ فبراير (شباط) سنة ١٨٨٠ وقد شرعوا في ثقبه من الطرفين
معاً فالتقوا في وسطه ولا مرشد لهم الا الحساب الهندسي وكان عددهم من ٢٥٠٠
الى ٣٤٠٠ وبلغت نفقته مليونين وربعاً من الجنيهات وكانت الآلات المستعملة
في ثقبه تتحرك بالهواء المنضبط تخلصاً من دخان الآلات البخارية وعرض السرب ٢٨
قدماً وارتقاءه ٢١ قدماً وهو مبطن بمجدارين وسقف من الحجارة المبنية وفوهة جبل يعلو
عليه أكثر من ستة آلاف قدم وبجيرة تعلو عليه ٣٣٥٠ قدماً . فاعجب من اقدام قوم
خرقوا الارض تحت جبالها وبجارها ترويضاً للتجارة وتسيلاً للانتقال

ومسكة سنت غوتار كلها من عجائب الاعمال الهندسية فان طولها ١٥٨ ميلاً وفيها
٥٦ مربكاً و٣٢ جسراً (كبري) كبيراً او ٢٤ جسراً صغيراً وقد بلغت نفقاتها ٢٣٨
مليوناً من الفرنكات

ولكن اعمال الانسان مما بلغت من العظمة والفرابة لا تذكر في جنب اعمال
الطبيعة التي كانت تعجلى امام ابصارنا كل لحظة من الزمان فالجبال تناطح السحاب وقد
جزت القدران على جوانبها كالسيوف اللوامع او انهالت منها سيولاً دوافق تنزل كعمود
من الفضة ولا تلبث حتى يزيقها الهواء بسبب العلو الشاهق الذي تنحدر منه فتستحيل ضباباً
رقيق الحواشي . والاشجار من أعلى الجبال الى اعماق الوهاد يعلو بعضها بعضاً
كأنها تبارى في طلب المطالي ولا يخلو منها مكان الا حيث ضرب الثلج اطناباً ودق
الجمد اوتاده . والانهار تندفق على الجانبين وتحن الى البحيرات محط رحلها حين
النوق ابصرت الفصال . والمدن والضياع والقرى والنادق منتشرة في طول الارض
وعرضها وراقية الى اعالي الجبال . ولما رأيت هذه المناظر هاج الشعر في خاطري وما
انا بشاعر فقلت

قد كنتُ أحسبُ ان الحسن مجنحٌ في "غاب" لبنان او في "غوطة" الشام ولم اكن في جبال أسويس مرتقياً والحدود قد سكبت ذؤب اللجين من الآ وما بها من بحيرات مديحة ان الذي خلق الاكوان اودعها وظلمنا نسير على هذا النسق تقف طويلاً في المدن الكبيرة وقليلاً في القرى الصغيرة

الى ان بلغنا مدينة لوسرن فنزلنا فيها للبيت وصعدنا الى فندق مبني فوق المدينة يطل عليها وعلى بحيرتها الزمرديّة والجبال المحيطة بها وكأنا انتقلنا الى الافطار المتجمدة فلم نكد نطيع شرب الماء لبرده مع ان المدينة لا تعلق عن سطح البحر سوى ١٤٣٧ قدماً والفندق الذي نزلنا فيه لا يعلو عنها أكثر من اربعمئة قدم وقد مررنا في طريقنا على اماكن تعلق السكة فيها عن سطح البحر نحو اربعة آلاف قدم ولم نشعر بالبرد ولكن قرب المدينة من الجبال الشاخنة كجبل ييلاطس الذي تعلق قنته عن سطح البحر نحو سبعة آلاف قدم واتجاهها نحو جبال الالب المغطاة بالثلج قد يردا جرّها وسلبا الحرارة من هوائها . وهي مثل كل المدن القديمة فيها جانب قديم ضيق الشوارع متلاصق البيوت وجانب جديد رحب الشوارع والازقة بيوتة كبيرة بديعة الهندسة والزخرفة داخلاً وخارجاً . ودار البريد جديدة حسنة البناء لا نرى مثالا في المشرق في مدينة سكانها مئة الف نفس مع ان سكان مدينة لوسرن نحو عشرين الف نفس فقط

وقنا في الصباح وودّعنا المدينة قبل ان نرى شيئاً من تحفها القديمة ومررنا في طريقنا على مدينة برن عاصمة بلاد سويسرا وهي غاصة بالمباني الفخيمة ودور التحف والمدارس كما يليق بعاصمة بلاد اشتهر اهلها بحب الفنون والمباهاة بها ولكننا لم ندخلها بل ظللنا سائرين الى مدينة نيون ومررنا على مدينة لوزان البديعة وشاهدنا مبانيها الفخيمة عن بعد . اما مدينة نيون فمن اصغر المدن التي شاهدناها لا يزيد سكانها على ٤٥٠٠ نفس ولكن فيها من المباني الجميلة والشوارع الرحبة ما لا يوجد في مدينة كبيرة من مدننا . وكان شوارع المدن في هذه البلاد وسنازلها ومخازنها مرآة غريبة تنظفها كل يوم حتى من القبار ان صحّ أنه يوجد غبار في هذه البلاد . وهنا تركنا مركبات البخار وركبنا مركبات تجرها الخيل وصعدنا في طريق يثنى بين الآكام والحراج الى ان بلغنا قرية سان سرك محط الرحال . والقرية صغيرة اكثرها منازل للسياح والمصيّنين وهي تعلق عن

سطح البحر نحو ٣٥٠٠ قدم وتحيط بها حراج الارز والزان من كل ناحية وتحتها وادى عميق تشرف عليه وتطل من فوقه على بحيرة جنيثا وجبال الالب. والاهالي دئبون على قطع الاخشاب من حراجهم وتربية المواشي في البقاع التي بينها وعمل الجبن من البانها. وارزهم ليس كالارز المعروف عندنا فان خشبها ايض قليل المادة القطرائية والنابت منه في التخضعات شامق الارتفاع يبلغ طول الارزة منه مئة قدم فاكثر. وقد قست محيط ارزة فوجدته مبعة امتار ولعلها اكبر الارز النابت هنا وبالقرب منها ارزة فيها عشرة فروع نابتة منها عمودية يحيط كل منها اكثر من مترين. والامن خارب اطنابة في هذه البلاد فينام الانسان في بيت وامتعة وسراشيد خارج البيت ولا يختر بياله ان احدا يسرقها. والهواة طيب والماء صحب ولا طيب ولا صيدلية ولا يظهر ان احدا ينجح اليها ولم ار بين السكان مريضا ولا مشوها ولا معثوها ولذلك يقصدعا المصيفون من كل ناحية وفنادقها مملوءة منهم الآن



حمامات القدماء

لجناب تسططين اندي نوفل

عرف القدماء فوائد الاستحمام كما عرفها المحدثون فاحرزوها في كل عصر ومصر وقد امر به اصحاب المذاهب واوصوا به في الكتب الدينية علما بما ينتج منه من حسن الصحة وبتاثير ذلك في الاخلاق. ويؤخذ من تواريخ القدماء ان الحمامات قديمة العهد جدا وكانت كثيرة عند المصريين واليونان والرومان وورد في اشعار هوميروس ان تليماك ادخل حمامات بالفة الغاية في النظافة فطابت فيها جوارى القصر الحان وللروس والننلنديون والتروجيون وغيرهم من سكان الاصقاع الاوربية الشمالية في ايامنا ولع شديد بالاستحمام وكذا الترك والعرب والنجم والمنود وهو العلاج البسيط الشافي لكثير من الامراض الجلدية التي تصيب الفقراء في البلدان الحارة وقد نقل الرومان ترتيب حماماتهم عن اليونان وكان كل روماني يبني لنفسه حماما في الغالب يستحم فيه من الظهيرة الى المساء حتى صدر الامر باستناعهم عن الاستحمام بعد الفداء. والذي حمل اليونان والرومان على اكثر الاستحمام هو هواه بلادهم واشكال